الجزء الثالث

الإسلام: الإجابة والحل

obeikandl.com

obeikandl.com

العالم الذى يراقبه الماركسيون، والليبراليون، والمسلمون، هو عالم واحد، كذلك أدوات الحس لديهم واحدة. إنهم يبصرون بالعيون نفسها، ويفكرون بالعقول نفسها. ومع ذلك، فإنهم يصلون ـ الكثير منهم بالأسلوب العقلى ـ إلى نتائج متباينة للغاية حول حدود الإدراك الحسى، وطبيعة الكون، وهندسته، وحول طبيعة ومصير الإنسان. إن نظرة المسلمين للعالم ذات ترابط وعقلانية مثل نظرات بعض الآخرين، لكنها تنفرد بتأسيسها على كتاب، ألا وهو القرآن، وسنة محمد بن عبد الله.

فيما يلى بيان العناصر التى تجعل من الإسلام بديلًا للنظرات الأخرى للعالم، التى سبق ذكر بعضها.

• الإيمان بالله

■ وجود الله وذاته

داخل العالم الإسلامى، نادرًا ما يكون وجود الله وذاته موضوعًا للمناقشة. فذلك من القضايا المسلم بها. قدمت امرأة عجوز نموذجًا لهذا الموقف عندما قيل لها إن أبا حامد الغزالى (مات ١١١١ م)، قد قدم ألف دليل على وجود الله، فكانت إجابتها الخالدة: «وماذا بعد؟ ما لم يكن لديه ألف شك، ما كان عليه البحث عن ألف دليل»!.

يعود الغياب النسبى للنقاش حول وجود الله بين المسلمين، إلى يقينهم بأن الله فوق التصور، شديد المحال، أبدى، لا يحده مكان ولا زمان ـ لذلك فهو يتجاوز الفهم الإنسانى.

■ الفلسفة غير الميتافيزيقية

لقد توصلوا إلى هذه النتيجة أخيرًا مع الفلسفة غير الميتافيزيقية للفيلسوف المسلم أبى الحسن الأشعرى (مات ٩٣٥م)، أى قبل إيمانويل كانت بوقت طويل. لقد وضع الأشعرى

نهاية صارمة للتخمينات الفلسفية للهلينستية الجديدة التى دخلت إلى الإسلام عن طريق المعتزلة الذين يمثلون مدرسة علم الكلام. لقد وصل المعتزلة بالفعل إلى الموقف الذى لا يمكن تبريره، بتعريض القرآن للنظر العقلى فى قضايا فكرية خلافية مثل أبدية العالم، وخلق القرآن، والاختيار والجبر، إلى الحد الذى يجعل اعتبار الحكم البشرى الخاص بهم هو المرجعية العظمى التى يجب أن تسود.

بفعلهم ذلك، فإنهم قد انتهكوا بعناد التحذير الوارد فى الآية السابعة من سورة آل عمران:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾.

على النقيض من تجربة المعتزلة، اختارت مدرسة الأشعرية قبول الصعوبة، أو الجوانب التى تخفى على الفهم (المتشابه) من القرآن، بقاعدة «بلا كيف، ولا تشبيه». بمعنى بدون البحث والتقصى ولا المقارنة فى هذا الصدد. باستخدام هذا التخمين النظرى المعرفى الفطرى (إذا لم نقل اللاأدرية العقلانية) وضع الأشعرية، ومن بعدهم الغزالى النهاية للماورائيات (ميتافيزيقيات) فى العالم الإسلامى ـ ٥٠٠ سنة قبل ظهور كانت، وألف سنة قبل ڤيتجنشتاين.

ما هو أكثر إثارة للإعجاب، هو إدراك الأشعرية لاستحالة الحصول على برهان استقرائى لقانون العِلِّية (السببية). وكان وصولهم إلى هذا الموقف متقدمًا بتسعمائة عام عن دافيد هيوم. فى الحقيقة، يمكن اعتبار كارل پوپر أيضًا فيلسوفًا أشعريًّا، بسبب أنه انتبه إلى عجز العقل عن إثبات صحة الفروض الأساسية للعلم.

وجه الغزالى ضربة قاضية إلى التخمين الميتافيزيقى، وإلى نظرية للوجود تقوم بالكلية على الحدس، عندما أدرك ـ أثناء أزمته الشخصية ـ أن مداركه العقلية كانت تقوده نحو نهاية لا يمكن تجاوزها. هنا، فإن الغزالى ـ أعظم علماء العقائد، والخبير القانونى (الفقهى)، ورجل الوقت فى الفلسفة ـ قام بتحول تام فى آرائه بإصدار كتابه التاريخى «تهافت الفلاسفة»، الذى ترجم إلى اللاتينية، والإنجليزية. فى هذا الكتاب، أشار الغزالى، بكل رضا، إلى أن كل الأنظمة الفلسفية المعروفة ـ بما فيها التى ليعقوب الكندى (مات ٨٧٣م)، ومحمد بن زكريا الرازى (مات ٩٢٣م)، وأبى نصر محمد الفارابى (مات ٩٥٠م)، وأبى على الحسين بن سينا (مات ١٠٣٧م)، تقوم على قواعد مفترضة وغير قابلة للتوضيح، وبذلك فلا يمكن الاعتماد عليها.

فى خطوة ثانية، امتد انتقاد الغزالى للعقلانية، ليشمل الرياضيات، والمنطق، وفلسفة

التشريع، وعلم الإلهيات أيضًا. لقد كشف من رؤاه فى سيرته الذاتية «المنقذ من الضلال»، التى تحوى «الاعترافات» الشهيرة عن محاكماته الذاتية المرهقة. على الإجمال، أنكر الغزالى قدرة أى علم على توفير البصيرة النافذة فى أية حقيقة غير محسوسة، وشدد على أن كل العلوم قامت على قواعد بديهية غير معصومة من الخطأ. الرياضيات، فى مفهومه، تتيح فقط نتائج دورانية متكررة لا تقدم مزيدًا من الوضوح. المنطق لا يحتوى قيمة معرفية أو إدراكية؛ حيث لا يمكن العثور على قيود صحيحة عامة ملزمة له. هكذا، فإن كل معارفنا عن العالم غير المرئى، ناتجة عن افتراضات لا يمكن إثباتها، وأيضًا:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

الدين ليس مسألة إقامة دليل، بل هو مسألة إيمان.

وفى النهاية، بعد أن فند العقلانية بأدلة عقلانية، أكد الغزالى على وجود طريق واحد إلى المعرفة: الحدس الصوفى. لم يكن وحده الذى وصل إلى هذه النتيجة. حتى ابن سينا ارتبط بالعرفان الصوفى المسمى «الفلسفة الشرقية». لكن دعنا ننصت أكثر إلى الغزالى:

«الإلهام هو حالة خاصة تكتشف فيها العين الداخلية.. الأسرار التى يستحيل على العقل الوصول إليها»، «أنا مدين فى حكمى، ليس إلى سلسلة الأدلة والبراهين، ولكن إلى النور الذى قذف به الله فى قلبى».

وهكذا، فقد وصل الغزالى إلى اليقين بوجود الله، وإلى صدق النبوة «ليس من خلال البراهين المحددة، ولكن بواسطة تداعى الأسباب، والظروف، والبراهين التى من المستحيل سردها».

هذا الطريق، بعد إغلاق الباب على التساؤل العقلى، تركه الفلاسفة المسلمون مفتوحًا بشكل شخصى للغاية، ومقصورًا على فئة قليلة للاقتراب من الحقيقة المطلقة. إيمانويل كانت، بيقظته الزائدة قليلًا، قد توصل إلى نفس النتيجة بالتسليم فى كتابه «نقد العقل العملى» بالله المطلق الذى لم يتمكن من إقامة الدليل عليه فى كتابه «نقد العقل الخالص».

إلى يومنا هذا، ظلت تلك هى الخلفية الفلسفية للإيمان ـ غير التخمينى للمسلمين ـ بوجود الله الأحد والواحد (التوحيد).

بالطبع، هناك فلاسفة مسلمون قد انحرفوا عن هذا الطريق الوسط من اللاأدرية العقلانية.

ابن رشد (مات ١١٩٨م) فعل ذلك، على الجانب العقلى، فى هجمته المضادة العنيفة فى عمله «تهافت التهافت» (ترجم إلى اللاتينية والإنجليزية). وأيضًا فعل ذلك محيى الدين بن عربى (مات ١٢٤٠م)، شيخ الصوفية الأكبر، من الناحية الروحانية (الغنوصية). لكن كل من هاتين المحاولتين العقلية، والجنب عقلية، كان لهما تأثير ضئيل داخل العالم الإسلامى.

كان لابن رشد ـ تحت اسم «أڤيروس» ـ تأثير أكبر على توماس الأكوينى والمدرسية المسيحية عمومًا، عن تأثيره على الأكاديميين المسلمين. وينطبق القول على ابن عربى، الذى أصبح كتابه «الفتوحات المكية» أكثر انتشارًا بين المستشرقين مثل هنرى كوربان، والصوفية الغربيين مثل فريثوف تشاون، ومايكل كيڤيكس، من انتشاره داخل دار الإسلام.

■ صفات الله

المناقشات عن الله داخل العالم الإسلامى، لا تركز لذلك على وجود الله، أو ذاته، وبدلًا من ذلك تركز على صفات الكمال المختصة به، كما أوحى بها القرآن، وجاءت فى السنة النبوية.

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل: ٦٠].

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [طه: ٨].

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر: ٢٤].

يذكر القرآن الله باسم «الرحمن» مرارًا، وأيضًا «الرحيم». واختصت الآيات الثلاث الأخيرة من سورة الحشر بذكر أكبر عدد من أسماء الله الحسنى:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وجاء فى الحديث: «إن الله جميل يحب الجمال»، «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب».

وعمومًا، يقاوم المسلمون إغراء الانغماس فى التشبيه أو خلع الصفات البشرية على الله، فهم على وعى بأنه: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص: ٤].

وأنه: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١].

فى الوقت نفسه، هم يحتمون بالأسماء، لكى يهربوا من موقف تصبح فيه صورة الله فى الدرجة القصوى من التجريد إلى حد فقدان المعنى، مثلما كان الحال مع كل من مدرسة المعتزلة الفكرية، والربوبيين الموحدين فى القرن الثامن عشر.

* * *

• الإيمان بالرسالة

هو من مقتضيات الإيمان بالله كخالق ورب للكون، والهادي لكل مخلوقاته.

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١].

لا يمكن إنكار جواز النبوة منطقيًّا، ما دام قد حصل اليقين بوجود الله.

حاجة البشر للنبوة واضحة. مثلما رأينا، فقد وصل العلم الحديث إلى حدود لا يمكن تجاوزها إلا بمساعدة فروض نظرية لا يمكن التحقق من صحتها. هل العمل بتصورات من مثل الانفجار العظيم، أو نظرية الأوتار الفائقة، أو فكرة الخلق الذاتى والتنظيم الذاتى للحياة، هو أكثر عقلانية من الإيمان بإمكانية وصول الرسالة المقدسة للجنس البشرى؟.

مع ذلك، يظل السؤال الرئيسى هو كيفية معرفة هوية النبوة الحقيقية، وليس هو إمكانية أو الحاجة إلى النبوة، وأيضًا تمييز النبوة من ادعاءات المحتالين من أمثال مسيلمة. يشهد المسلمون بإيمان بالله، وإيمان بكتبه ورسله، واليوم الآخر.

* * *

• الإيمان بالقرآن

ليس المقصود هنا تقديم كل الأدلة الفكرية، أو حتى الجمالية عن المصدر الإلهى للقرآن (ونبوة محمد بالتبعية). تقوم بعض البراهين على:

- الأساليب اللغوية المتفردة للقرآن، بالمقارنة بالشعر العربى والنثر قبل الإسلام.
- جمال التعبير.
- التركيب المثير للدهشة، متضمنًا التواؤم بين المضمون والصوت.
- الترابط الداخلى، والتطابق فى المضامين، حتى مع الاكتشافات العلمية الحديثة (القرآن هو النص المقدس الوحيد، الذى يخلو من الأخطاء التاريخية والعلمية).
- صدق إخباره بالغيب المستقبلي.
- نفاذه فى النفس البشرية.
- قيمه السامية المتجاوزة للزمان والمكان.
- عالميته التى لا تفضل أحدًا على أحد إلا بالإيمان والعمل الصالح.
- حكمته المتعالية على أى حكمة بشرية.

لقد بذل كلٌّ من أنجليكا نيورث (برلين)، ونيل روبنسون (ليدز)، وأحمد على الإمام (الخرطوم) جهودًا مضنية فى إيضاح الأصلية، والتركيب المتجاوز، والمستعصى على النظير للقرآن الكريم. لكن غير الناطقين بالعربية، مع وجود بعض الاستثناءات الفريدة مثل محمد أسد، يمكنهم بصعوبة إتقان العربية الفصحى إلى الدرجة التى تمكنهم من الفهم الشكلى للقرآن، ورؤيته كمعجزة لغوية. لكن يمكن لكل شخص قبول حكمته من حيث بصيرته النافذة إلى عمق الطبيعة البشرية، وعالمية القيم التى يحتويها، وكذلك تجاوزها لحاجز الزمن، وجاذبيته للعقل البشرى، واتصافه بالكونية أيضًا.

مع ذلك، مثلما هى الحال دائمًا فيما يتعلق بقضايا الإيمان، فكما أن العديد من الناس يجتاحهم القرآن عند أول لقاء، فهناك منهم من لا يحرك فيه ساكنًا، الإيمان هو فى الواقع هبة من الله.

* * *

• المعرفة العلمية

أ ـ الإسلام والعلم

يبدأ الجزء الثالث والأخير من هذا الكتاب بقضايا الإيمان من أجل التوضيح الذى لا إبهام فيه، بأن نظرة الإسلام إلى العالم، تقوم جوهريًّا على الإيمان، الإيمان بالله، وبرسالة محمد، وبأن القرآن هو الوحى الإلهى، ذلك الإيمان لا يمكن الاستغناء عنه والركون لشىء آخر. من يرفض المغامرة الروحية للإيمان، لن يتسنى له تعويض ذلك باللجوء إلى العلم.

لا يعنى ذلك أن الإسلام يتخذ منحى سلبيًّا تجاه العلم، العكس هو الصحيح تمامًا! يشتمل القرآن على ما يصل إلى ٧٥٠ آية تحض الناس على دراسة الطبيعة، والتأمل فى وجودهم والكون من حولهم، وعلى أن يحسنوا استخدام عقولهم، مثل:

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٥].

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه: ١٢٨].

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢].

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

لقد كرر القرآن كلمة العلم والعقل والنظر والرؤية التى بمعنى المعرفة مئات المرات.

فى الحقيقة، الإسلام هو الدين الوحيد الذى لا توجد لديه أية مشاكل على الإطلاق مع العلم. ينظر المسلمون إلى الطبيعة على الدوام على أنها كتاب آخر، كتاب ثان من الله ينبغى قراءته وفك ألغازه، لذلك انتشر بينهم القول إن الكون هو كتاب الله المشاهد أو المُعَايَش، مقارنة بالقرآن الذى هو كتاب الله المقروء. وهم مقتنعون بأنه لا يوجد أى تناقض فعلى بين العلم بالإلهيات والعلم الدنيوى، بمعنى العلم بالإلهيات الذى لا يحل محل العلم الدنيوى، والعلم الدنيوى الذى لا يحل محل العلم بالإلهيات. وفى الحقيقة، فإن التناقض بين العلم الدنيوى والدينى فى الثقافات الأخرى، دائمًا ما كان تناقضًا بين المظاهر العلمية الزائفة للدين، والمظاهر الدينية الزائفة للعلم. حدوث أى تناقضات بين هذين المجالين من المعرفة، هو عادة يعود إلى الخطأ التصنيفى (كين ويلبر).

وفى نهاية الأمر، فقد كان العلماء المسلمون هم الذين أدخلوا «الملاحظة» و«التجريب» للظاهرة الطبيعية فى أدق تفاصيلها. هذان الأسلوبان كانا غريبين على منهجية المفكرين اليونانيين القدامى. وفى الحقيقة، فإن القوة المحركة للانفجار العلمى فى كل المجالات فى نشأة العلم الإسلامى وصعوده، كانت هى الحث القرآنى المتكرر على أن يستخدم الإنسان عقله، وأن يشاهد الطبيعة والكون ويتدبر، وأن يستخلص من ذلك النتائج والعبر.

بالتبعية، لم يكن هناك إحراق للكتب فى الإسلام. وكذلك لم يتعرض الأكاديميون للمحاكم والإحراق مثل ما حدث مع جاليليو جاليلى (مات ١٦٤٢م)، وچيوردانو برونو (مات ١٦٠٠م) فى العالم الغربى. فيما عدا الفترة القصيرة لمحنة استجوابات المعتزلة أيام الخليفة العباسى المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢م) فى بغداد، فلم تحاول السلطات الإسلامية فرض وجهات نظر فلسفية معينة.

لم يعش الإسلام التناقض المرير بين الكنيسة والعلم، الذى ميز تاريخ الفكر الغربى حتى بداية التنوير، وحتى تحقق انتصار الأسلوب العلمى التجريبى الوضعى، والذى يظهر فى الحداثة كما نعرفها فى أيامنا هذه. كما لم يحصد ثماره المريرة: أى الرفض الغربى المنظم للدين بواسطة العلم(*).

ب ـ أسلمة العلم

بينما يحتضن المسلمون العلم، بما يقدر على أن يعمله فى إطار القيود الخاصة به، فإنهم يناضلون ضد الرفض المعاصر لكل أنواع المعرفة التى لا تتحصل من خلال التجربة العلمية: الرفض لكل الحقائق التى لا تخضع للملاحظة، وبالتالى فهى ليست كمية، والتى يجمع المنطقيون الوضعيون والتجريبيون على نفيها بالقول بأنها غير محسوسة (حرفيًّا: ليس فى المقدور فهمها) بما فى ذلك الحقائق الأخلاقية، والجمالية، والروحانية. بالنسبة للمسلمين، يتسم هذا المنهج بالاختزالية غير المقبولة؛ حيث إنه يستبعد الظواهر التى لا يعتريها الشك مثل الموت، والحب، والتراحم، كما يفشل هذا المنهج فى قبول «الحقيقة» فى الجمال الظاهر فى الطبيعة، والرياضيات «الأنيقة»، وأيضًا فى الفنون.

(*) الشجرة المحرمة فى الجنة ـ طبقًا لما جاء فى الكتاب المقدس هى شجرة المعرفة، ولذلك رفضت الكنيسة لقرون طويلة أى معرفة خارجة عن نطاقها اللاهوتى.

خلال جلسة عمل، فى عام ١٩٨٣، فى معهد ماكس بلانك للفيزياء والفيزياء الفلكية، فى ميونيخ، قام «سيد حسين نصر» بكثير من الفهم، بإيجاز ناتج الأيديولوچية العلموية بقوله: «لا يستطيع الإسلام أن يقبل... العلم المعاصر الذى قد يختزل ما وراء الطبيعة إلى علم النفس، وعلم النفس إلى علم الأحياء، وعلم الأحياء إلى علم الكيمياء، والكيمياء إلى الفيزياء، وبذلك يهبط بكل عناصر الحقيقة إلى المستوى الأدنى من التجلى وهو العالم الفيزيائى».

يرفض المسلمون هذا الاختزال الوضعى اليقينى، ويدافعون عن النظرة القدسية للعالم والتى تقوم على الروحانية، مقترنة بإمكانية الحصول على معرفة صحيحة من خلال الوحى الإلهى، لكنهم لا يرفضون الفكر الغربى، والثقافة الغربية، وأيضًا العلم الغربى بالجملة. فى الحقيقة، الحداثة نفسها وأسلوبها الصحى فى الشك المنهجى، وفى فك ألغاز الرؤية للكون ذات السحر ـ لا تمثل مشكلة للمسلمين (عبد الكريم سوروش). ما يعترضون عليه، هو الخداع المصاحب للعلم. إنهم متفقون مع لويس پاستور على أن «القليل من العلم يأخذك بعيدًا عن الله، لكن الكثير منه، يأخذ بناصيتك إليه جلّ وعلا».

بالطبع، يعى المسلمون أن العلم هو نشاط إنسانى، وبذلك فهو معرض لكل الأخطاء الإنسانية، وكذلك القيم المتغلغلة فى ثقافة رواده. ذلك هو السبب وراء أن مؤسس المعهد العالمى للفكر الإسلامى «إسماعيل الفاروقى»، وكذلك من جاء بعده «طه جابر العلوانى»، لم يصبهما الكلل مطلقًا من الدعوة إلى «إسلامية المعرفة»، بمعنى، متابعة العلم داخل إطار القيم الإسلامية.

لا يمثل ذلك دعوة للمسلمين لإعادة اختراع العجلة، ولا العودة للبداية من حيث ينبغى للعلم الإسلامى أن يكون يعنى ذلك، إن العلماء المسلمين الحقيقيين والأتقياء، انطلاقًا من حيث نقف الآن، ينبغى عليهم البناء التدريجى للنظرة الكونية الخاصة بهم. يواصل هؤلاء المسلمون استخدام الطرق الغربية المعتمدة فى الملاحظة، وجمع البيانات، لكن عليهم مداومة مراجعة الأسس النظرية التى شيدت هذه الطرق، مراجعة أقل على أسس البيانات، ومراجعة أكبر للافتراضات الأولية المادية.

* * *

● العلم الطبيعى

أ ـ القرآن والعلم

يمكن الاتفاق مع «موريس بوكاييه» فى قوله إنه لا يوجد فى القرآن ما يتناقض مع نتائج الأبحاث العلمية المعاصرة.

لكن لا يمكن الاتفاق مع ادعاء «ياسين كساب» فى كتابه «الألف حقيقة علمية للقرآن الكريم» بأن القرآن يشبه موسوعة علمية فى الفيزياء، والكيمياء، وأيضًا علم الأحياء، بوصفه مصدرًا للمعرفة العلمية. وللأسف، فقد انحرف بعض المسلمين تحت تأثير الغواية «للبرهنة» على صحة ذلك، مدّعين ـ على سبيل المثال ـ بأن القرآن قد احتوى على معرفة كل ما يتعلق بالكهرباء، واستكشاف الفضاء ونظرية الانفجار العظيم، وما شابه ذلك.

ينبغى ألا نفقد على الإطلاق النظرة إلى القرآن على أنه ليس معجمًا علميًّا، ولكنه رسالة إلهية عن دور الإنسان على الأرض، وكيف تنتظم حياته على أساسها، وتأسيسها القواعد الأخلاقية.

ب ـ الكونية

طبقًا للقرآن، فقد خلق الله العالم بالحق، ولإحقاق الحق:

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧، الأنعام: ٧٣، النحل: ٤٠، مريم: ٣٥، غافر: ٦٨].

ذلك يعنى أن الله خلق الكون من «العدم»، وليس لعبًا أو لهوًا ولم يجئ مصادفة.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٦].

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

ولكن لهدف: هو أن يخلق الله خليفته فى الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وبذلك يُعرف الله الذى يستحق الحمد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢].

فى خطوة تالية، يوضح القرآن مجيء الكون للوجود عندما انفجرت مادة مكثفة للغاية:

﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وتلا ذلك ظهورها على هيئة غازات:

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت: ١١].

يقول بأن الكون يتمدد:

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧].

غالبًا ما يتحدث القرآن عن السماوات بصيغة الجمع ـ وفى بعض الأحيان عن سبع سماوات:

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٨].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح: ١٥].

يبين القرآن، بالطبع، أن الكون قد خلق لأجل محدود، لذلك فهو ليس أزليًّا:

﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الأحقاف: ٣].

وفى الواقع، فإن القرآن المجيد يعج بالأوصاف الدرامية لموقف «الساعة»:

﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١].

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨].

ومجمل سورة الزلزلة:

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ ..... وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ١ ـ ٨].

وعندما يصل العالم إلى نهايته التى تشكل كارثة كونية، فإن الله يقول:

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨].

كل ما سبق، يتطابق مع أكثر النتائج العلمية حداثة. لا يمكن لأحد أن يشرح نظرية الانفجار العظيم بدون حدوث فعل للخلق يسبقها. لا يمكن لأحد أن يلغى احتمال وجود عدة أكوان

obeikandl.com

أخرى، قد تكون من مادة مظلمة (سلبية)، ولا يلغي احتمال الانسحاق العظيم، بمعنى رجوع التمدد الكونى إلى الاتجاه المعكوس، أو الطى.

جـ ـ الفيزياء

(١) الذرة

ورثت الفلسفة الإسلامية نظرية من التراث الإغريقى: إن المادة غير قابلة للانقسام اللانهائى. وعلى الرغم من أن القرآن يستخدم كلمة «الذرة» كمرادف عربى، مرتين فى السورة التاسعة والتسعين (الزلزلة)، فإنه من قبيل المبالغة الزائدة فى التفسير، الادعاء بأن ذلك سبق يفوق فيزياء الجسيمات فائقة الصغر.

يعرف المسلمون أن جميع العوامل، فى كل من فيزياء الجسيمات المتناهية الصغر، وفيزياء الأجسام متناهية الضخامة، توفر الاتزان الكامل لبعضها البعض، بدون أى نوع من الفوضى، وأن الحسابات الدقيقة المسئولة عن ذلك، توضح أن الكون بأكمله، نزولًا إلى الذرة المفردة، يخضع للسيطرة المطلقة لصانعه:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٤].

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩].

أليس الأكثر بديهية هو وجود قوة واحدة ووحيدة ـ من وجود «صيغة حسابية للعالم» ـ والتى تجمع جميع القوى مع بعضها فى تناغم أى الله؟!

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧].

(٢) الضوء

الأكثر إثارة للإعجاب والانتباه، هو حقيقة أن الله فى سورة النور يقول:

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥].

﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨].

شبّه الله نفسه بالنور، وهى حقيقة من الأهمية بمكان إلى الدرجة التى تعلى من شأن الفكر الدينى الإشراقى الفلسفى للنور، الذى ارتبط بالصوفى شهاب الدين السهروردى المقتول (مات ١١٩١م)، والذى أطلق عليه بحق اسم شيخ الإشراق. كل ذلك قد يمثل رجع الصدى لحقيقة أن الضوء يلعب دورًا متفردًا فى الفيزياء بأنواعها.

(٣) العِلِّية (السببية)

يعتبر القرآن أن الله هو العلة الأولى لكل المخلوقات، والتى يقوم على رعايتها بلا سنة ولا نوم ولا لغوب، إلى درجة أنه:

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩].

القرآن لا يصطدم بفكرة قانون السببية «المستقل والطبيعى»، لكن القرآن يؤكد لنا يقينًا، أنه على الدوام:

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وهو أسلوب أو طريقة الله. هكذا، فإن لنفس الملاحظات عن تسلسل حوادث معينة هناك تفسيرات مختلفة.

على ذلك، تختلف النظريات عن السببية، ولكن النتائج واحدة فى النهاية، والفضل يعود إلى ما ورد فى سورة فاطر:

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

(٤) الكيمياء العضوية

لا يترك القرآن مجالًا للشك على مستوى أدق التفاصيل، فى أن الحياة قد خلقها الله، وأنها لم تتطور بمحض الصدفة. لم يتوافر برهان علمى على عكس ما سبق.

إضافة إلى ذلك، يشرح القرآن المجيد، أن الحياة بدأت من الماء:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

يتوافق ذلك مع علم الأحياء المعاصر(*).

* * *

(*) ننصح القارئ الذى يريد التوسع قراءة: «مختارات من تفسير الآيات الكونية فى القرآن»، د. زغلول النجار، منشورات مكتبة الشروق الدولية.

obeikandl.com

• العلوم الاجتماعية

أ ـ الخطأ التصنيفى

كما رأينا من قبل، تكمن مشكلة العلوم الاجتماعية الغربية فى أنها تقوم على أساس مقدمات زائفة عن طبيعة البشر، اقترضتها من مادية العلوم الطبيعية. منذ أيام چون ستيوارت مل، فى عام ١٨٤٣، عندما طالب بتطبيق أساليب العلوم الطبيعية فى مجال العلوم الاجتماعية، ظلت الإنسانية تُدرس بنفس الأسلوب المادى، والاختزالى، والخالى من المعنى كما لو كانت فيزياء نيوتن.

وكان ذلك خطأ تصنيفيًّا هائلًا.

الطرق التى ورثتها العلوم الاجتماعية من العلوم الطبيعية قد أحبطت بالفعل أى مجهود قام به علم الأنسنة (الأنثروپولوچى)، وعلم الاجتماع، وأيضًا علم النفس، لفهم الإنسانية. وكنموذج لذلك، فإن فحص ٣٠ مرجعًا رئيسيًّا لعلم النفس عام ١٩٨٠، كشف النقاب عن خلو أىٍّ من هذه المراجع، من أى مرجعية للدين أو للعلوم الروحانية، دعك من ذكر الله (إبراهيم رجب).

فى الواقع، استوجب الأمر أولًا سقوط الفيزياء النيوتونية، ليتسنى للفيزياء الجديدة أن تطور مجالًا جديدًا أمام العلوم الاجتماعية الغربية، وليعترف أيضًا بدرجة من السببية الروحية، فى أبحاث المخ، وعلم الاجتماع، وحتى وضع العوامل العقلية الذاتية على مقربة من قمة هرم التحكم البشرى.

ب ـ الطبيعة البشرية

هدف الإنسان فى حياته، من المنظور الإسلامى، هو معرفة الله، وعبادة الله بحمل أمانة التكليف بالعمل كخلفاء على الأرض. لا يتفق هذا مع منظور أن الإنسان قد «ألقى» به إلى الوجود بشكل تراچيدى (هيدجر)، أو أنه قد ضل طريقه داخل القنوط الوجودى (سارتر)، ولا أنه حيوان ذو ذكاء، تتحكم فيه أدنى غرائزه (فرويد)، أو سطوة شهوة القوة (نيتشه). إنه بدلًا من ذلك، خليفة كرَّمه خالقه، يسمو إلى العزة والعدل والخلود، يحركه الأمل فى الحياة الآخرة، وربما يكون قد ألقى به داخل هذه الحياة، لكن لأجل قريب: العودة إلى بيته، إلى ظل خالقه فى فردوسه الأعلى.

التناقض بين هذه الصورة الإسلامية عن الإنسان، وصورته التى تعتنقها العلوم الاجتماعية الغربية، لا يمكن تجاوزه، لا مكان للحلول الوسط أو التصالح بين هاتين الصورتين.

الحيوانات، مثلها فى ذلك مثل الإنسان، كلها مخلوقات لله، وبوصفها من مخلوقاته فكل منها يتبع الأمة الخاصة به. الفرق أن الناس مكلفون، ولهم إرادة الاختيار.

* * *

• الأخلاق

أ ـ الإنسان هو كائن أخلاقى

الإنسان باعتباره كائنًا أخلاقيًّا، قد أوكلت إليه مسيرة من خلال طريق محدد (عقيدة تتبعها شريعة)، وأن عليه ألا يتعدى حواجز معينة (الحدود)، وكل ذلك من أجل نجاحه فى الدنيا والآخرة. وظيفة الشرع الإلهى هى أن يحيا الإنسان فى وئام مع خالقه، ونفسه ومجتمعه، وبيئته.

من الواضح أن العلم عاجز عن توفير مثل هذه المجموعة من القواعد لممارسة الحياة، وبحلول القرنين: التاسع عشر والعشرين، حاولت المذاهب الفكرية المتعددة توفير الأخلاقيات ـ مثل الفلسفة النفعية ـ الفلسفة المحافظة سواء فى أوروبا أو أمريكا ـ الماركسية ـ الرأسمالية ـ الفاشية ـ الليبرالية ـ وقد فشلت كلها جميعًا فى تجنب الكوارث الهائلة، وتشهد القرون الثلاثة الأخيرة بذلك، خاصة القرن العشرين.

وسط كل الأديان، الإسلام هو الدين الوحيد الذى يمهد للإنسان طريقًا متكاملًا للعيش، يسمح له وللمجتمع بأن يعيشا معًا فى رخاء، وفى توازن فريد. الباقية كلها إما تسحق فردية الإنسان، أو تحد من مسئولياته الاجتماعية، أو تستبيح الآخر، سواء كان ذلك آخرًا من ناحية اللون والعرق أو الدين.

ب ـ اقتصاد ذو وجه إنسانى

إن التطبيق الأمثل لذلك هو من خلال الاقتصاد الإسلامى؛ حيث إن هذا المجال العالى الفنية، يجب أن ينظر إليه أيضًا باعتبار مجموعة من الأخلاقيات على المستوى العام والمستوى الخاص. يشدد الاقتصاد الإسلامى على أن الهدف الأول والأخير للعمل يكمن فى الرفاهية المادية والروحية للإنسان ولمجتمعه، الاثنين معًا.

لذلك، فإن مسألة منع استغلال الإنسان للإنسان، هى فى حدها الأدنى إسلامية بقدر يماثل الاهتمام الماركسى. لا يطلب الإسلام نظامًا اشتراكيًّا، ولا بالطبع شيوعيًّا، ولكن نظامًا إنسانيًّا لأن كل البشر أولاد آدم وحواء، فهم ليسوا فقط متساوين، ولكنهم إخوة. يُحرِّم الإسلام الظلم بصفة عامة، ويحرمه بصفة خاصة فى المعاملات المادية، فيمنع استغلال الفقراء والمحتاجين، ويضع شروطًا للتعاملات التجارية تمنع الخداع، وتمنع سطوة رأس المال فى الربح، سواء ربح الطرف المقترض أو خسر، وتمنع الاحتكار.

ويرى الإسلام أن الملكية الخالصة هي لله، وأن الله استخلف البشر فيما آتاهم من مال، أو سلطة، وعليهم أن يعملوا بها لصالح مجتمعاتهم، وفرض عليهم إقامة العدل الاجتماعى، والتكافل فى المصائب والأزمات.. وحرم الإسلام ـ كما حرمت اليهودية(*) والمسيحية ـ الربا:

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥ ـ ٢٧٩].

لذلك، يقترح علماء الإسلام ترتيبات للمشاركة فى الغنم والغرم (المشاركة فى الربح والمخاطرة).

قد يكون هذا الاقتصاد أقل إنتاجية من الاقتصاد الرأسمالى الخالص ـ وقد لا يكون! ـ لكن الأساس: أن الكفاءة وعائد رأس المال ينبغى ألا يصبحا غاية فى ذاتيهما، يود الإسلام قيام اقتصاد إنسانى.

جـ ـ الترابط الأسرى

يشدد الإسلام على الأهمية الجذرية، وبالتالى على قدسية الأسرة، باعتبارها اللبنة الأساسية

(*) حرَّم العهد القديم الربا، ولكن أضاف الكتبة أن ذلك ليس بين اليهود فقط، فجاء الأمر كالتالى: لا تتقاضوا الفوائد من بنى إسرائيل ... أما الأجنبى فأقرضوه بربا ـ التثنية ٢٣: ١٩ ـ ٢٠.

التى يتكون منها المجتمع، وبكونها الملاذ الآمن والحصين للرفاهية النفسية، والعاطفية، والمادية للزوج والزوجة والأولاد والأجداد، والأقارب. شركاء الزواج هم الدروع الواقية لبعضهم البعض:

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وينبغى توافر السكن والمودة والرحمة بين الزوجين:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

لذلك، فإن المسلمين على اقتناع بأن انهيار الأسرة ـ كما هى فى طريقها إلى ذلك فى الغرب ـ سوف يقود حتمًا إلى انهيار المجتمع، ما لم يمنع ذلك فى الوقت المناسب.

وفقًا للقواعد القرآنية، والسنة النبوية، يدافع المسلمون عن المثاليات من نوع العذرية، وتحريم العلاقات الجنسية خارج الزواج. هذا «الاتجاه المحافظ» يتوافق بشكل كامل مع ما كان يمثل القاعدة فى الغرب، حتى الحرب العالمية الثانية، باستثناءات.

يسمح الفقه الإسلامى بالطلاق:

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق: ١].

وذلك عندما تستحيل الحياة السوية، ويصبح الانفصال أفضل من استمرار الارتباط بزواج قد تحول إلى سجن لأحد الطرفين أو كليهما. لكن الطلاق يعتبر «أبغض الحلال إلى الله».

كان الشذوذ الجنسى دائمًا موجودًا، داخل الدول الإسلامية. لكن لم يسبق على الإطلاق إعلانه، أو الجهر به، والترويج له مثلما يحدث حاليًّا فى الغرب، وكأسلوب بديل للحياة، مقنن بروابط شبه زوجية بين المثليين. ينبغى على المسلمين مقاومة كل المحاولات للتبرير وللاعتراف المؤسسى للعلاقات الجنسية المثلية.

بالدفاع الصارم عن الأسرة، يساهم المسلمون بكل ما أوتوا من قوة فى منع المزيد من انتشار العنف، وتشريد الأطفال، وانحراف الأحداث (المراهقين).

د ـ العتق الحقيقى

لا توجد أدنى ذرة من الشك فى أن العديد من النساء المسلمات ما زلن محرومات من التمتع بحقوقهن التى كفلها لهن القرآن، خاصة الأميات، واللاتى تزوجن ضد رغباتهن، وغير القادرات على التحكم فى مهورهن أو حتى الحصول عليه. الكثير من المسلمات قد تم تحنيطهن بأسلوب مخالف للإسلام، وحرمن من لعب دورهن العام، الذى هن مؤهلات له. فى جميع الأحوال، ينبغى تحرير النساء المسلمات، وعتقهن من الاستبداد الذكورى، حتى يتسنى لهن خوض حياة فاعلة.

إنهن لن يتمكن من الوصول إلى ذلك بدون المنافسة مع الرجال، لكن ليس بادعاء التماثل بين الرجال والنساء بدلًا من المطالبة بالمساواة.

الفكرة هى التحرر النسائى داخل إطار الإسلام من استبداد الرجال، وليس التحرر مروقًا من الإسلام.

هـ ـ التكامل فى الجنس

- اتسم العالم الغربى بالتأرجح مثل البندول بين نهايتين متطرفتين:
- النظرة الدونية الكارهة للجنس، مثلما بشر بذلك القديس بولس، وطبقًا لسياسة الكنيسة الرسمية لمدة قرون طويلة.
- التحررية الجنسية، مثلما تبشر بها الثورة الجنسية فى القرن العشرين.

الإسلام، بطبيعته كدين للوسطية، يتميز بالحساسية لكل أنواع الغلو، لم يربط الجنس بغواية حواء لآدم بأن يأكل من الشجرة المحرمة، وبأنها مصدر الخطيئة الأصلية، والطرد من الجنة، وأنها رمز كل الشرور على الأرض، ولم يتورط فى تحليل الإسراف فيه، بل على العكس، فإن دافع الجنس قد نظر إليه المسلمون على أنه نعمة من الله، طبيعية، وأنه ليس مصدرًا للتكاثر فحسب، بل أيضًا للمتعة والحب المشترك، بالتبعية، لم يعرف العالم الإسلامى أيًّا من الرهبنة بأسلوبها فى التدين الخالى من الجنس.

و ـ الانحياز للحياة

قد يعطى المسلمون الأفضلية للأم، فى حال ما شكَّل الحمل تهديدًا لحياتها، لكن الإسلام فيما عدا ذلك من حالات ينحاز للمحافظة على الحياة، حتى فى مراحلها المبكرة للغاية، بما يعنى فى مرحلة الخلايات الجنينية الجذعية. فى الوقت الذى أصبحت فيه شرعية الإجهاض مقبولة

فى كل مكان على وجه الأرض تقريبًا، وحتى الأساقفة الكاثوليك الألمان أصبحوا يعارضون البابا تجاه هذه القضية. تسترعى توجهات المسلمين المنحازة للحياة ـ بشكل لا يقبل التنازل ـ الانتباه. تعلم الحوامل من الأمهات المسلمات، أن الحياة التى تنمو داخل «بطونهن»، ليست ملكًا لهن يبيح لهن انتزاع نعمة الحياة التى وهبت لأطفالهن من الله.

ومن المثير للاستغراب أن نرى أن الممارسات النازية، مثلها مثل القتل الرحيم، الذى يطلقون عليه «التخلص من الحياة، التى لا تستحق العيش»، هو الآن مطروح بشكل موسع حتى داخل الأقطار «المسيحية» الديمقراطية.

ز ـ اليقظة (الانتباه)

ربما كان من أعظم إسهامات الإسلام لخلاص حضارته الخاصة وكذلك الحضارة الغربية، هو التزام المسلم باليقظة. تحرم الأديان الأخرى أيضًا إدمان الكحول، والتدخين المتفاقم. لكن لا يوجد بينها ما فيه من الصرامة مثل الإسلام فى تحريم تعاطى حتى أقل كمية من أية مادة، قد تؤدى عند الكمية الأكبر إلى التأثير على الوظائف الطبيعية للعقل. لذلك، نستطيع معادلة الإسلام باليقظة.

لا يعنى ذلك القول بأن عالم المسلمين يخلو من المخدرات، ولكن لا يوجد اختلاف بين المسلمين على حرمتها، ولا يتناولها أحد علنًا، ولا تقدم على مائدة العشاء بشكل روتينى، وعندما يشرب أو يتعاطى المسلم أى مخدر فإنه إنما يفعل ذلك بضمير غير مرتاح. إنه يعلم أنه لم يخلق نفسه، ولذلك فإنه لا يملك الحق فى تدميرها.

* * *

• السياسة

بالنظر إلى الأوضاع السابق بيانها، يشعر العديد من المسلمين بالحمل الواقع على كاهلهم لتقديم الإسلام بوصفه الحل الناجح، إن لم يكن الدواء الشافى، لمعظم مثالب الحضارة الغربية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

هذه الجهود المبررة بشدة لا تعنى أن «الإسلام سوف يبتلع كل واحد منا» مثلما افترض د. بيت باخلين فى كتابه الذى يحمل العنوان الإنذارى باللغة الألمانية «الهجوم الإسلامى على

أوروبا». لكنها تعنى أن المسلمين فى الغرب، عندما يتجاوز نظرهم محيط مساجدهم، فهم على شفا الدخول إلى المسرح السياسى كلاعبين، لا يطالبون فقط، بل يملكون أيضًا ما يقدمونه للمجتمع بكامله:

- التحويل الروحانى من المادية إلى مثالية الحكمة العامة: رأس الحكمة مخافة الله.
- إنقاذ المنظومة الأخلاقية من «أى شىء يجوز»، إلى التمسك بالأوامر الإلهية، وعمادها «حب لأخيك ما تحب لنفسك»، «كلكم لآدم وآدم من تراب»، «إنما البشر سواسية كأسنان المشط».
- العدل والتضامن الاجتماعى بديلًا للفردية المتطرفة ﴿... وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ...﴾ [المائدة:٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ...﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، «لا يبيت أحدكم شبعانًا وجاره جائع»، «خير الناس خيرهم للناس».
- الأسرة المتحابة المترابطة:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ...﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ...﴾ [لقمان: ١٤]، «إلزمها (الأم) فإن الجنة تحت أقدامها»، من أحق الناس بصحبتك: «أمك ثم أمك ثم أمك، ثم أبوك».

- تحرير المرأة من شتى أنواع الكبت والاستغلال، وعلى رأسه الاستغلال الجنسى.
- اليقظة تحل محل الإدمان البنيوى.
- النضج البيئى، بدلًا من الاستغلال المنفلت للطبيعة.
- المناداة باقتصاد إنسانى، بدلًا من الاستغلال الرأسمالى.
- الشورى(*) أساس الحكم ﴿... وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ...﴾[آل عمران: ١٥٩]، ﴿... وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ...﴾[الشورى:٣٨].

(*)وقد ضرب النبى ﷺ أوضح الأمثلة فى مشاورته لأصحابه، حتى فى وقت الحرب، حتى عندما جاءت قريش لاستئصال المسلمين فى غزوة أحد، وجاءت الأحزاب لاستئصالهم فى غزوة الأحزاب، فقد شاور أصحابه ونزل على رأيهم، وهو الذى ينزل عليه وحى السماء.
واختيار الصحابة لأبى بكر كان تطبيقًا للشورى، ولم تألف البشرية اختيار حكامها إلا بعد ذلك بأكثر من عشرة قرون.

ولا مناص من أن يتم ذلك بأقصى روح من التسامح تتيحها التعددية الدينية، والتى لا تتصرف بأسلوب شمولى أو انتقائى تجاه بقية الأديان:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [النحل: ٩٣].

وعلى الرغم من اقتناع المسلمين بأنهم أصحاب الدين القيم، وبالتبعية أصحاب الحلول الصحيحة:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

فقد وكل لهم فقط مهمة التنافس مع الآخرين فى وئام.

وإذا كان القرآن يعلن فى صراحة ووضوح ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ...﴾ [البقرة: ٢٥٦] فلا إكراه فى أى أمر آخر، سواء كان ذلك نظامًا سياسيًّا أو اقتصاديًّا أو اجتماعيًّا.

فيما يتعلق بالعالم العربى الإسلامى، فإن ذلك يفرض على المفكرين أن يكونوا أكثر تصميمًا على الدفاع عن التراث والعقائد الخاصة بهم، وإذا عرف المسلمون فى الغرب أن لديهم المبررات لمعارضة مادية ولا أخلاقية الحضارة الغربية، فما بالك بالكثرة الوافرة من المبررات التى لدى المسلمين القابعين فى قلب أرض الإسلام، لإزاحة السمات الضارة للإرث الاستعمارى وتبعاته وأعوانه بعيدًا عن أهلهم.

سوف تتمتع الدول الإسلامية بالحرية الحقيقية، فقط عندما يتمكن قادة الفكر لديها من فك رقابهم من الانبهار غير القابل للنقد بكل شىء غربى، وأن يعودوا للاغتراف من المصادر الثرية للثقافة الإسلامية الخاصة بهم.

ولقد حان الوقت لفعل ذلك.

* * *